مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْحَادِيَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة الْخَامِسَة

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

٧- فَقْدُ الْخَشيَةِ فِيهِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

أَيْ: إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ لِلْعَظِيمِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، الْمَنْعُوتِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ، كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمَّ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلَ كَانَتِ الْخَشْيَةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قَالَ: «الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: «الْخَشْيَةُ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللهِ ﷻ».

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «الْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَ اللهُ فِيهِ، وَزَهِدَ فِيمَا سَخِطَ اللهُ فِيهِ، ثُمَّ تَلَا الْحَسَنُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه **أَنَّهُ قَالَ**: «لَيْسَ الْعِلْمُ عَنْ كَثْرَةِ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ عَنْ كَثْرَةِ الْخَشْيَةِ».

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ الْمِصْرِيُّ، عَنِ ابْنِ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ، قَالَ: «إِنَّ الْعِلْمَ

لَيْسَ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ نُورٌ يَجْعَلُهُ اللهُ فِي الْقَلْبِ».

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ الْمِصْرِيُّ: مَعْنَاهُ: أَنَّ الْخَشْيَةَ لَا تُدْرَكُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ ﷻ أَنْ يُتَّبَعَ، إِنَّمَا هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَمَا جَاءَ عَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَهَذَا لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالرِّوَايَةِ، وَيَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: نُورٌ، يُرِيدُ بِهِ: فَهْمَ الْعِلْمِ، وَمَعْرِفَةَ مَعَانِيهِ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي حَيَّانَ التَّيْمِيِّ عَنْ رَجُلٍ قَالَ: «كَانَ يُقَالُ: الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ بِاللهِ عَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ، وَعَالِمٌ بِاللهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللهِ، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللهِ؛ فَالْعَالِمُ بِاللهِ وَبِأَمْرِ اللهِ الَّذِي يَخْشَىٰ اللهَ تَعَالَىٰ وَيَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ، وَالْعَالِمُ بِاللهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللهِ الَّذِي يَخْشَىٰ اللهَ وَلَا يَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ، وَالْعَالِمُ بِأَمْرِ اللهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللهِ الَّذِي يَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ وَلَا يَخْشَىٰ اللهَ ﷻ»(١).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رحمه الله: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ -يَعْنِي: بِعَقِبِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾- تَعْلِيلٌ لِوُجُوبِ الْخَشْيَةِ، لِدَلَالَتِهِ عَلَىٰ عُقُوبَةِ الْعُصَاةِ وَقَهْرِهِمْ، وَإِثَابَةِ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ، وَالْمُعَاقِبُ الْمُثِيبُ حَقُّهُ أَنْ يُخْشَىٰ»(٢).

---

(١) انْظُرْ: «تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٣/ ٥٥٤).

(٢) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (١٤/ ٣٣٢).

وَقَدْ تَوَعَّدَ اللهُ ﷻ الَّذِينَ لَا تَلِينُ قُلُوبُهُمْ لِلذِّكْرِ، وَلَا يُحْدِثُ عِنْدَهُمُ الْخَشْيَةَ، وَمَدَحَ الَّذِينَ تُدْرِكُهُمُ الْخَشْيَةُ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٢-٢٣].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾، أَيْ: فَلَا تَلِينُ عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَلَا تَخْشَعُ، وَلَا تَعِي، وَلَا تَفْهَمُ، ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ثُمَّ مَدَحَ اللهُ ﷻ كِتَابَهُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الْمُنَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾.

قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُتَشَابِهٌ مَثَانِي.

وَقَالَ قَتَادَةُ: الْآيَةُ تُشْبِهُ الْآيَةَ، وَالْحَرْفُ يُشْبِهُ الْحَرْفَ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿مَّثَانِيَ﴾: تَرْدِيدُ الْقَوْلِ لِيَفْهَمُوا عَنْ رَبِّهِمْ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿مَّثَانِيَ﴾ مُرَدَّدٌ، رَدَّدَ مُوسَىٰ فِي الْقُرْآنِ، وَصَالِحًا، وَهُودًا، وَالْأَنْبِيَاءَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي أَمْكِنَةٍ كَثِيرَةٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيَرُدُّ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ، عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْجَبَّارِ، الْمُهَيْمِنِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، لِمَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لِمَا يَرْجُونَ وَيُؤَمِّلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ فَهُمْ مُخَالِفُونَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْفُجَّارِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ سَمَاعَ هَؤُلَاءِ هُوَ تِلَاوَةُ الْآيَاتِ وَسَمَاعُ أُولَئِكَ نَغَمَاتُ الْأَبْيَاتِ مِنْ أَصْوَاتِ الْقَيْنَاتِ.

الثَّانِي: أَنَّهُمْ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا بِأَدَبٍ وَخَشْيَةٍ وَرَجَاءٍ وَمَحَبَّةٍ وَفَهْمٍ وَعِلْمٍ كَمَا قَالَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

أَيْ: لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ سَمَاعِهَا مُتَشَاغِلِينَ لَاهِينَ عَنْهَا، بَلْ مُصْغِينَ إِلَيْهَا فَاهِمِينَ بَصِيرِينَ بِمَعَانِيهَا، فَلِهَذَا إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِهَا وَيَسْجُدُونَ عِنْدَهَا عَنْ بَصِيرَةٍ لَا عَنْ جَهْلٍ وَمُتَابَعَةٍ لِغَيْرِهِمْ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ يَلْزَمُونَ الْأَدَبَ عِنْدَ سَمَاعِهَا كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ تِلَاوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ ثُمَّ تَلِينُ مَعَ قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ لَمْ يَكُونُوا يَتَصَارَخُونَ وَلَا يَتَكَلَّفُونَ مَا لَيْسَ فِيهِمْ بَلْ عِنْدهمْ

مِنَ الثَّبَاتِ وَالسُّكُونِ وَالْأَدَبِ وَالْخَشْيَةِ مَا لَا يَلْحَقُهُمْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا فَازُوا بِالْمَدْحِ مِنَ الرَّبِّ الْأَعْلَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، قَالَ: تَلَا قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، قَالَ: هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، نَعَتَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِأَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ وَتَبْكِيَ أَعْيُنُهُمْ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ وَالْغَشَيَانِ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، أَيْ: هَذِهِ صِفَةُ مَنْ هَدَاهُ اللهُ، وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ مِمَّنْ أَضَلَّهُ اللهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾»[1].

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مَعْنَىٰ: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أَنَّ قُلُوبَهُمْ تَزْدَادُ قَسْوَةً مِنْ سَمَاعِ ذِكْرِهِ، وَقِيلَ: إِنَّ (مِنْ) بِمَعْنَىٰ (عَنْ)، وَالْمَعْنَىٰ: قَسَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ قَبُولِ ذِكْرِ اللهِ، وَهَذَا اخْتِيَارُ الطَّبَرِيِّ.

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ، وَمَا غَضِبَ اللهُ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا نَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِهِ»[2].

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ لَمَّا قَالَ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ

---

(١) «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٤/ ٥٠).
(٢) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (١٥/ ٢٣٧).

﴿أَحْسَنَهُۥ﴾ [الزمر: ١٨] بَيَّنَ أَنَّ أَحْسَنَ مَا يُسْمَعُ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ وَهُوَ الْقُرْآنُ.

﴿كِتَٰبًا﴾ نُصِبَ عَلَىٰ الْبَدَلِ مِنْ ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْهُ.

﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْآيِ وَالْحُرُوفِ، وَقِيلَ: يُشْبِهُ كُتُبَ اللهِ الْمُنَزَّلَةَ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ، لِمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ، وَإِنْ كَانَ أَعَمَّ وَأَعْجَزَ، ثُمَّ وَصَفَهُ فَقَالَ: ﴿مَّثَانِيَ﴾. تُثَنَّىٰ فِيهِ الْقِصَصُ وَالْمَوَاعِظُ وَالْأَحْكَامُ، وَثَنِيٌّ لِلتِّلَاوَةِ فَلَا يُمَلُّ.

﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تَضْطَرِبُ وَتَتَحَرَّكُ بِالْخَوْفِ مِمَّا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ عِنْدَ آيَةِ الرَّحْمَةِ. وَقِيلَ: إِلَىٰ الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللهِ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ. وَقِيلَ: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يَعْنِي الْإِسْلَامَ.

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ. قِيلَ لَهَا: فَإِنَّ أُنَاسًا الْيَوْمَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ خَرَّ أَحَدُهُمْ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُمَحِيُّ: مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ سَاقِطٍ فَقَالَ: مَا بَالُ هَذَا؟ قَالُوا: إِنَّهُ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَسَمِعَ ذِكْرَ اللهِ سَقَطَ. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِنَّا لَنَخْشَىٰ اللهَ وَمَا نَسْقُطُ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ

أَحَدِهِمْ؛ مَا كَانَ هَذَا صَنِيعَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: ذُكِرَ عِنْدَ ابْنِ سِيرِينَ الَّذِينَ يُصْرَعُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ، فَقَالَ: بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَنْ يَقْعُدَ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ بَاسِطًا رِجْلَيْهِ، ثُمَّ يُقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ فَإِنْ رَمَىٰ بِنَفْسِهِ فَهُوَ صَادِقٌ»(١).

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَيْ: لَا تَلِينُ لِكِتَابِهِ، وَلَا تَتَذَكَّرُ آيَاتِهِ، وَلَا تَطْمَئِنُّ بِذِكْرِهِ، بَلْ هِيَ مُعْرِضَةٌ عَنْ رَبِّهَا، مُلْتَفِتَةٌ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَهَؤُلَاءِ لَهُمُ الْوَيْلُ الشَّدِيدُ، وَالشَّرُّ الْكَبِيرُ، ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وَأَيُّ ضَلَالٍ أَعْظَمُ مِنْ ضَلَالِ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ وَلِيِّهِ؟ وَمَنْ كَلَّ السَّعَادَةَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَقَسَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَضُرُّهُ؟

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّخْوِيفِ وَالتَّرْهِيبِ الْمُزْعِجِ، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَيْ: عِنْدَ ذِكْرِ الرَّجَاءِ وَالتَّرْغِيبِ، فَهُوَ تَارَةً يُرَغِّبُهُمْ لِعَمَلِ الْخَيْرِ، وَتَارَةً يُرَهِّبُهُمْ مِنْ عَمَلِ الشَّرِّ»(٢).

وَالشَّأْنُ كَمَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: «مَنْ لَمْ يَخْشَ اللهَ تَعَالَىٰ فَلَيْسَ بِعَالِمٍ».

وَكَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ: «إِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ اللهَ ﷻ».

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (١٥/ ٢٣٧).

(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص٤٦٢).

وَفِي قَوْلٍ لِمُجَاهِدٍ: «إِنَّمَا الْفَقِيهُ مَنْ يَخَافُ اللهَ ﷻ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «كَفَىٰ بِخَشْيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ عِلْمًا وَبِالِاغْتِرَارِ جَهْلًا».

وَقِيلَ لِسَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: «مَنْ أَفْقَهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ لِرَبِّهِ ﷻ»(١).

فَالْخَشْيَةُ وَالْخُشُوعُ مِنْ لَوَازِمِ الْعِلْمِ الْحَقِّ لَا يَنْفَكَّانِ عَنْهُ بِحَالٍ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ لَوَازِمِ الْفَهْمِ الْحَقِّ، وَهُوَ أَيِ: الْفَهْمُ الْحَقُّ وَلَيْسَ الْوُقُوفُ عَلَىٰ رُسُومِ الْأَلْفَاظِ وَصُورَةِ الْعِلْمِ مِنْ لَوَازِمِ الْعِلْمِ الْحَقِّ.

وَقَدْ حَكَىٰ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ حَالَ الَّذِي يَقِفُونَ عِنْدَ رُسُومِ الْأَلْفَاظِ وَصُورَةِ الْعِلْمِ دُونَ النَّفَاذِ إِلَىٰ لُبِّهِ وَلُبَابِهِ فَقَالَ:

«رَأَيْتُ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ مُشْتَغِلِينَ بِصُورَةِ الْعِلْمِ دُونَ فَهْمِ حَقِيقَتِهِ وَمَقْصُودِهِ.

فَالْقَارِئُ مَشْغُولٌ بِالرِّوَايَاتِ، عَاكِفٌ عَلَىٰ الشَّوَاذِّ، يَرَىٰ أَنَّ الْمَقْصُودَ نَفْسُ التِّلَاوَةِ، وَلَا يَتَلَمَّحُ عَظَمَةَ الْمُتَكَلِّمِ؛ وَلَا زَجْرَ الْقُرْآنِ وَوَعْدَهُ.

وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ يَدْفَعُ عَنْهُ، فَتَرَاهُ يَتَرَخَّصُ فِي الذُّنُوبِ، وَلَوْ فَهِمَ لَعَلِمَ أَنَّ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ أَقْوَىٰ مِمَّنْ لَمْ يَقْرَأْ.

وَالْمُحَدِّثُ يَجْمَعُ الطُّرُقَ، وَيَحْفَظُ الْأَسَانِيدَ، وَلَا يَتَأَمَّلُ مَقْصُودَ الْمَنْقُولِ، وَيَرَىٰ أَنَّهُ قَدْ حَفِظَ عَلَىٰ النَّاسِ الْأَحَادِيثَ، فَهُوَ يَرْجُو بِذَلِكَ السَّلَامَةَ.

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (١٤/ ٣٣١).

وَرُبَّمَا تَرَخَّصَ فِي الْخَطَايَا ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ مَا فَعَلَ فِي خِدْمَةِ الشَّرِيعَةِ يَدْفَعُ عَنْهُ.

وَالْفَقِيهُ قَدْ وَقَعَ لَهُ أَنَّهُ بِمَا قَدْ عَرَفَ مِنَ الْجِدَالِ الَّذِي يُقَوِّي بِهِ خِصَامَهُ، أَوِ الْمَسَائِلِ الَّتِي قَدْ عَرَفَ فِيهَا الْمَذْهَبَ قَدْ حَصَلَ بِمَا يُفْتِي بِهِ النَّاسَ مَا يَرْفَعُ قَدْرَهُ، وَيَمْحُو ذَنْبَهُ.

فَرُبَّمَا هَجَمَ عَلَىٰ الْخَطَايَا ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ يَدْفَعُ عَنْهُ.

وَرُبَّمَا لَمْ يَحْفَظِ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْرِفِ الْحَدِيثَ، وَأَنَّهُمَا يَنْهَيَانِ عَنِ الْفَوَاحِشِ بِزَجْرٍ وَرِفْقٍ.

وَيَنْضَافُ إِلَيْهِ مَعَ الْجَهْلِ بِهِمَا حُبُّ الرِّيَاسَةِ، وَإِيثَارُ الْغَلَبَةِ فِي الْجَدَلِ، فَتَزِيدُ قَسْوَةُ قَلْبِهِ.

وَعَلَىٰ هَذَا أَكْثَرُ النَّاسِ، صُوَرُ الْعِلْمِ عِنْدَهُمْ صِنَاعَةٌ، فَهِيَ تَكْسِبُهُمُ الْكِبْرَ وَالْحَمَاقَةَ.

وَقَدْ حَكَىٰ بَعْضُ الْمُعْتَبِرِينَ عَنْ شَيْخٍ أَفْنَىٰ عُمُرَهُ فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ، أَنَّهُ فُتِنَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بِفِسْقٍ أَصَرَّ عَلَيْهِ، وَبَارَزَ اللهَ بِهِ وَكَانَتْ حَالُهُ تُعْطِي بِمَضْمُونِهَا أَنَّ عِلْمِي يَدْفَعُ عَنِّي شَرَّ مَا أَنَا فِيهِ وَلَا يَبْقَىٰ لَهُ أَثَرٌ.

وَكَانَ كَأَنَّهُ قَدْ قَطَعَ لِنَفْسِهِ بِالنَّجَاةِ، فَلَا يُرَىٰ عِنْدَهُ أَثَرٌ لِخَوْفٍ وَلَا نَدَمٍ عَلَىٰ ذَنْبٍ. قَالَ فَتَغَيَّرَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَلَازَمَهُ الْفَقْرُ، فَكَانَ يَلْقَىٰ الشَّدَائِدَ وَلَا يَنْتَهِي عَنْ

قُبْحِ حَالِهِ. إِلَىٰ أَنْ جُمِعَتْ لَهُ يَوْمًا قَرَارِيطُ(١) عَلَىٰ وَجْهِ الْكِدْيَةِ(٢) فَاسْتَحَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: يَا رَبِّ إِلَىٰ هَذَا الْحَدِّ؟

قَالَ الْحَاكِي: فَتَعَجَّبْتُ مِنْ غَفْلَتِهِ كَيْفَ نَسِيَ اللهَ ﷻ، وَأَرَادَ مِنْهُ حُسْنَ التَّدْبِيرِ لَهُ وَالصِّيَانَةِ وَسَعَةَ الرِّزْقِ، وَكَأَنَّهُ مَا سَمِعَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، وَلَا عَلِمَ أَنَّ الْمَعَاصِيَ تَسُدُّ أَبْوَابَ الرِّزْقِ، وَأَنَّ مَنْ ضَيَّعَ أَمْرَ اللهِ ضَيَّعَهُ اللهُ.

فَمَا رَأَيْتُ عِلْمًا مَا أَفَادَ كَعِلْمِ هَذَا، لِأَنَّ الْعَالِمَ إِذَا زَلَّ انْكَسَرَ، وَهَذَا مُصِرٌّ لَا تُؤْلِمُهُ مَعْصِيَتُهُ.

وَكَأَنَّهُ -أَيْ: عِلْمُهُ- يُجَوِّزُ لَهُ مَا يَفْعَلُ، أَوْ كَأَنَّ لَهُ التَّصَرُّفَ فِي الدِّينِ تَحْلِيلًا وَتَحْرِيمًا، فَمَرِضَ عَاجِلًا وَمَاتَ عَلَىٰ أَقْبَحِ حَالٍ.

قَالَ الْحَاكِي: وَرَأَيْتُ شَيْخًا آخَرَ حَصَّلَ صُوَرَ عِلْمٍ فَمَا أَفَادَتْهُ.

كَانَ أَيُّ فِسْقٍ أَمْكَنَهُ لَمْ يَتَحَاشَ مِنْهُ، وَأَيُّ أَمْرٍ لَمْ يُعْجِبْهُ مِنَ الْقَدَرِ عَارَضَهُ بِالِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ الْمُقَدَّرِ وَاللَّوْمِ.

---

(١) **الْقَرَارِيطُ**: جَمْعُ قِيرَاطٍ، وَهُوَ نِصْفُ عُشْرِ دِينَارٍ، وَالْقِيرَاطُ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الدِّينَارِ، وَأَهْلُ الشَّامِ يَجْعَلُونَهُ جُزْءًا مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ، وَالْيَاءُ فِي الْقِيرَاطِ بَدَلٌ مِنَ الرَّاءِ وَأَصْلُهُ قِرَّاطٌ «لِسَانُ الْعَرَبِ» (ص٣٥٩١).

(٢) الْكُدْيَةُ: الْإِلْحَاحُ فِي الْمَسْأَلَةِ، يُقَالُ أَكْدَىٰ: أَيْ: أَلَحَّ فِي الْمَسْأَلَةِ.

فَعَاشَ أَكْدَرَ عَيْشٍ، وَعَلَىٰ أَقْبَحِ اعْتِقَادٍ حَتَّىٰ دَرَجَ(١).

«وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَىٰ الْعِلْمِ، وَلَيْسَ الْعِلْمُ صُوَرَ الْأَلْفَاظِ، إِنَّمَا الْمَقْصُودُ فَهْمُ الْمُرَادِ مِنْهُ، وَذَلِكَ يُورِثُ الْخَشْيَةَ وَالْخَوْفَ، وَيُرِيهِ الْمِنَّةَ لِلْمُنْعِمِ بِالْعِلْمِ، وَقُوَّةَ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَىٰ الْمُتَعَلِّمِ»(٢).

وَالْخُشُوعُ مَنْزِلَةٌ مِنْ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، لَهَا مَعَالِمُ وَعَلَيْهَا شَوَاهِدُ.

وَقَدْ شَرَحَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (١/ ٥٢٠) مَعَالِمَهَا، وَبَيَّنَ شَوَاهِدَهَا، غَايَةَ الْبَيَانِ وَأَجْلَاهُ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْخُشُوعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ: الِانْخِفَاضُ، وَالذُّلُّ، وَالسُّكُونُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨]، أَيْ: سَكَنَتْ، وَذَلَّتْ، وَخَضَعَتْ، وَمِنْهُ وَصْفُ الْأَرْضِ بِالْخُشُوعِ، وَهُوَ: يُبْسُهَا، وَانْخِفَاضُهَا، وَعَدَمُ ارْتِفَاعِهَا، بِالرَّيِّ وَالنَّبَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩].

وَالْخُشُوعُ: قِيَامُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ بِالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ وَالْجَمْعِيَّةِ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: الْخُشُوعُ: الِانْقِيَادُ لِلْحَقِّ. وَهَذَا مِنْ مُوجِبَاتِ الْخُشُوعِ، فَمِنْ عَلَامَاتِهِ: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا خُولِفَ وَرُدَّ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ، اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ وَالِانْقِيَادِ.

---

(١) دَرَجَ الشَّيْخُ وَالصَّبِيُّ يَدْرُجُ دَرْجًا وَدَرِيجًا وَدَرَجَانًا، فَهُوَ دَارِجٌ: مَشَيَا مَشْيًا ضَعِيفًا وَدَبَّا.

(٢) «صَيْدُ الْخَاطِرِ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص٥٤٧).

وَقِيلَ: الْخُشُوعُ: خُمُودُ نِيرَانِ الشَّهْوَةِ، وَسُكُونُ دُخَانِ الصُّدُورِ، وَإِشْرَاقُ نُورِ التَّعْظِيمِ فِي الْقَلْبِ.

وَقَالَ الْجُنَيْدُ: الْخُشُوعُ: تَذَلُّلُ الْقُلُوبِ لِعَلَّامِ الْغُيُوبِ.

وَأَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْخُشُوعَ مَحِلُّهُ الْقَلْبُ، وَثَمَرَتُهُ الْجَوَارِحُ، وَهِيَ تُظْهِرُهُ.

وَقَدْ رَأَىٰ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ: «**لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**»(١).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**التَّقْوَىٰ هَاهُنَا**» وَأَشَارَ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: حُسْنُ أَدَبِ الظَّاهِرِ عُنْوَانُ أَدَبِ الْبَاطِنِ.

وَرَأَىٰ بَعْضُهُمْ رَجُلًا خَاشِعَ الْمَنْكِبَيْنِ وَالْبَدَنِ، فَقَالَ: يَا فُلَانُ، الْخُشُوعُ هَاهُنَا -وَأَشَارَ إِلَىٰ صَدْرِهِ- لَا هَاهُنَا -وَأَشَارَ إِلَىٰ مَنْكِبَيْهِ-.

---

(١) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ: رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، وَيُرْوَىٰ مَرْفُوعًا لَكِنَّهُ بِإِسْنَادٍ لَا يَصِحُّ «الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ» (ص٧) بَلْ حَكَمَ بِوَضْعِهِ مَرْفُوعًا الْأَلْبَانِيُّ قَالَ: الْحَدِيثُ مَوْضُوعٌ مَرْفُوعًا، ضَعِيفٌ مَوْقُوفًا بَلْ مَقْطُوعًا «سِلْسِلَةُ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ» رَقْمُ (١١٠).

(٢)رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٦٤).

وَكَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم **وَهُوَ حُذَيْفَةُ، يَقُولُ**: إِيَّاكُمْ وَخُشُوعَ النِّفَاقِ. فَقِيلَ لَهُ: وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَىٰ الْجَسَدَ خَاشِعًا وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ.

وَرَأَىٰ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه **رَجُلًا طَأْطَأَ رَقَبَتَهُ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ**: يَا صَاحِبَ الرَّقَبَةِ، ارْفَعْ رَقَبَتَكَ، لَيْسَ الْخُشُوعُ فِي الرِّقَابِ، إِنَّمَا الْخُشُوعُ فِي الْقُلُوبِ.

وَرَأَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها **شَبَابًا يَمْشُونَ وَيَتَمَاوَتُونَ فِي مِشْيَتِهِمْ، فَقَالَتْ لِأَصْحَابِهَا**: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا: نُسَّاكٌ. فَقَالَتْ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا مَشَىٰ أَسْرَعَ، وَإِذَا قَالَ أَسْمَعَ، وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ، وَإِذَا أَطْعَمَ أَشْبَعَ، وَكَانَ هُوَ النَّاسِكُ حَقًّا.

وَالْحَقُّ: أَنَّ الْخُشُوعَ مَعْنًىٰ يَلْتَئِمُ مِنَ التَّعْظِيمِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالذُّلِّ، وَالِانْكِسَارِ»[1]. اهـ.

فَإِذَا أَثْمَرَ الْعِلْمُ فِي الْقَلْبِ خَشْيَةً وَخُشُوعًا، فَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ، وَإِذَا لَمْ يُثْمِرِ الْعِلْمُ فِي الْقَلْبِ خَشْيَةً وَإِخْبَاتًا، فَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي تَعَوَّذَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُ، وَأَمَرَ الْأُمَّةَ أَنْ تَتَعَوَّذَ بِاللهِ تَعَالَىٰ مِنْهُ.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَىٰ شَيْءٍ**».

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ رحمه الله (١/ ٥٢٠).

فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُختَلَسُ مِنَّا، وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ؟ فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّهُ، وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا.

فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؛ هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فَمَاذَا تُغنِي عَنْهُمْ؟!**».

قَالَ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ: فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَىٰ مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ: الْخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَىٰ فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٦٥٣)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢/ ٣٣٧)، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَىٰ» (٣/ ٤٥٦) رَقْمُ (٣٩٠٩)، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ لَا عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ، وَتَصَحَّفَ عَلَىٰ نَاشِرِي «السُّنَنِ الْكُبْرَىٰ»: جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ بِـ«جُبَيْرِ بْنُ نُصَيْرٍ»!!

«**فَالْعِلْمُ النَّافِعُ**: هُوَ مَا بَاشَرَ الْقُلُوبَ فَأَوْجَبَ لَهَا السَّكِينَةَ وَالْخَشْيَةَ وَالْإِخْبَاتَ لِلَّهِ، وَالتَّوَاضُعَ وَالِانْكِسَارَ، وَإِذَا لَمْ يُبَاشِرِ الْقَلْبَ ذَلِكَ الْعِلْمُ، وَإِنَّمَا كَانَ عَلَىٰ اللِّسَانِ، فَهُوَ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ يَقُومُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ وَغَيْرِهِ.

كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ؛ نَفَعَ صَاحِبَهُ».

فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا مَوْجُودٌ بِأَيْدِيهِمْ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْهُ، لَمَّا فَقَدُوا الْمَقْصُودَ مِنْهُ، وَهُوَ وُصُولُهُ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ حَتَّىٰ يَجِدُوا حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَمَنْفَعَتَهُ بِحُصُولِ الْخَشْيَةِ وَالْإِنَابَةِ لِقُلُوبِهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ، تُقَامُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ.

وَلِهَذَا الْمَعْنَىٰ وَصَفَ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْعُلَمَاءَ بِالْخَشْيَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وَقَالَ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

وَوَصَفَ الْعُلَمَاءَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِالْخُشُوعِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢-٢٣]، وَلِينُ الْقُلُوبِ: هُوَ زَوَالُ قَسَاوَتِهَا؛ لِحُدُوثِ الْخُشُوعِ فِيهَا وَالرِّقَةِ.

وَقَدْ عَاتَبَ اللهُ مَنْ لَا يَخْشَعُ قَلْبُهُ لِسَمَاعِ كِتَابِ اللهِ وَتَدَبُّرِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [الحديد:١٦].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عُوتِبْنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا

أَرْبَعُ سِنِينَ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ(١).

وَقَدْ سَمِعَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّالِحِينَ هَذِهِ الْآيَةَ تُتْلَىٰ فَأَثَّرَتْ فِيهِمْ آثَارًا مُتَعَدِّدَةً؛ فَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ عِنْدَ ذَلِكَ لِانْصِدَاعِ قَلْبِهِ بِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَابَ عِنْدَ ذَلِكَ وَخَرَجَ عَمَّا فِيهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

قَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ: «وَاللهِ لَقَدْ صَرَّفَ إِلَيْنَا رَبُّنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ مَا لَوْ صَرَّفَهُ إِلَىٰ الْجِبَالِ لَمَحَاهَا وَدَحَاهَا».

وَكَانَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ يَقُولُ: «أُقْسِمُ لَكُمْ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ بِهَذَا الْقُرْآنِ إِلَّا صُدِعَ قَلْبُهُ».

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ؛ كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(٢)، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمَنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**»(٣).

---

(١) فِي صَحِيحِهِ (٣٠٢٧).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٧٢٢).

(٣) «الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ» لِابْنِ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيِّ (ص١٤).

قَالَ أَبُو عُمَرَ: فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ» (١/ ١٨٨): «قَالَ يَزِيدُ بْنُ قَوْدَرٍ: يُوشِكُ أَنْ تَرَىٰ رِجَالًا يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَيَتَغَايَرُونَ عَلَيْهِ كَمَا يَتَغَايَرُ الْفُسَّاقُ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ، هُوَ حَظُّهُمْ مِنْهُ».

وَأَخْرَجَ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي قُلَابَةَ قَالَ: إِذَا أَحْدَثَ اللهُ لَكَ عِلْمًا فَأَحْدِثْ لَهُ عِبَادَةً، وَلَا يَكُنْ هَمَّكَ أَنْ تُحَدِّثَ بِهِ.

وَبِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ قَالَ: «إِنَّمَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ لِيُتَّقَىٰ بِهِ اللهُ، وَإِنَّمَا فُضِّلَ الْعِلْمُ عَلَىٰ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ يُتَّقَىٰ بِهِ اللهُ».

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي ... كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ

وَأَرَاكَ تُلْقِحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا ... أَبَدًا وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمُ

ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

فَهُنَاكَ يُسْمَعُ مَا تَقُولُ وَيُقْتَدَىٰ ... بِالْعِلْمِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

www.menhag-un.com

٨- الْمِرَاءُ وَالْجِدَالُ وَالْمُخَاصَمَةُ

الْمِرَاءُ: طَعْنٌ فِي كَلَامِ الْغَيْرِ بِإِظْهَارِ خَلَلٍ فِيهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْتَبِطَ بِهِ غَرَضٌ سِوَىٰ تَحْقِيرِ الْغَيْرِ، وَإِظْهَارِ مَزِيَّةِ الْكَيَاسَةِ.

وَالْجِدَالُ: عِبَارَةٌ عَنْ أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِإِظْهَارِ الْمَذَاهِبِ وَتَقْرِيرِهَا.

وَالْمُجَادَلَةُ: عِبَارَةٌ عَنْ قَصْدِ إِفْحَامِ الْغَيْرِ وَتَعْجِيزِهِ، وَتَنْقِيصِهِ بِالْقَدْحِ فِي كَلَامِهِ، وَنِسْبَتِهِ إِلَىٰ الْقُصُورِ وَالْجَهْلِ فِيهِ.

وَالْخُصُومَةُ: لَجَاجٌ فِي الْكَلَامِ لِيُسْتَوْفَىٰ بِهِ مَالٌ أَوْ حَقٌّ مَقْصُودٌ، وَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ ابْتِدَاءً وَتَارَةً يَكُونُ اعْتِرَاضًا، وَالْمِرَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاعْتِرَاضٍ عَلَىٰ كَلَامٍ سَبَقَ، فَالْخُصُومَةُ وَرَاءَ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ(١).

قَالَ أَبُو حَامِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَدُّ الْمِرَاءِ هُوَ: كُلُّ اعْتِرَاضٍ عَلَىٰ كَلَامِ الْغَيْرِ بِإِظْهَارِ خَلَلٍ فِيهِ إِمَّا فِي اللَّفْظِ، وَإِمَّا فِي الْمَعْنَىٰ، وَإِمَّا فِي قَصْدِ الْمُتَكَلِّمِ.

وَتَرْكُ الْمِرَاءِ بِتَرْكِ الْإِنْكَارِ وَالِاعْتِرَاضِ، فَكُلُّ كَلَامٍ سَمِعْتَهُ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَصَدِّقْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَوْ كَذِبًا وَلَمْ يَكُنْ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورِ الدِّينِ فَاسْكُتْ عَنْهُ.

---

(١) هَذِهِ التَّعْرِيفَاتُ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ: «تَهْذِيبِ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُون (٢/ ٤٩).

وَالطَّعْنُ فِي كَلَامِ الْغَيْرِ تَارَةً يَكُونُ فِي لَفْظِهِ؛ بِإِظْهَارِ خَلَلٍ فِيهِ مِنْ جِهَةِ النَّحْوِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ اللُّغَةِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ النَّظْمِ وَالتَّرْتِيبِ؛ بِسُوءِ تَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ، وَذَلِكَ يَكُونُ تَارَةً مِنْ قُصُورِ الْمَعْرِفَةِ، وَتَارَةً يَكُونُ بِطُغْيَانِ اللِّسَانِ، وَكَيْفَمَا كَانَ فَلَا وَجْهَ لِإِظْهَارِ خَلَلِهِ.

وَأَمَّا فِي الْمَعْنَىٰ؛ فَبِأَنْ يَقُولَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُ، وَقَدْ أَخْطَأْتَ فِيهِ مِنْ وَجْهِ كَذَا وَكَذَا.

وَأَمَّا فِي قَصْدِهِ؛ فَمِثْلُ أَنْ يَقُولَ: هَذَا الْكَلَامُ حَقٌّ، وَلَكِنْ لَيْسَ قَصْدُكَ مِنْهُ الْحَقَّ، وَإِنَّمَا أَنْتَ فِيهِ صَاحِبُ غَرَضٍ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ.

وَهَذَا الْجِنْسُ إِنْ جَرَىٰ فِي مَسْأَلَةٍ عِلْمِيَّةٍ رُبَّمَا خُصَّ بِاسْمِ الْجَدَلِ، وَهُوَ أَيْضًا مَذْمُومٌ، بَلِ الْوَاجِبُ السُّكُوتُ، أَوِ السُّؤَالُ فِي مَعْرِضِ الِاسْتِفَادَةِ لَا عَلَىٰ وَجْهِ الْعِنَادِ وَالنَّكَارَةِ، أَوِ التَّلَطُّفِ فِي التَّعْرِيفِ لَا فِي مَعْرِضِ الطَّعْنِ.

وَأَمَّا الْمُجَادَلَةُ: فَعِبَارَةٌ عَنْ قَصْدِ إِفْحَامِ الْغَيْرِ وَتَعْجِيزِهِ وَتَنْقِيصِهِ بِالْقَدْحِ فِي كَلَامِهِ، وَنِسْبَتِهِ إِلَىٰ الْقُصُورِ وَالْجَهْلِ فِيهِ.

وَآيَةُ ذَلِكَ: أَنْ يَكُونَ تَنْبِيهُهُ لِلْحَقِّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ مَكْرُوهًا عِنْدَ الْمُجَادِلِ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرُ لَهُ خَطَأَهُ؛ لِيُبَيِّنَ بِهِ فَضْلَ نَفْسِهِ، وَنَقْصَ صَاحِبِهِ، وَلَا نَجَاةَ مِنْ هَذَا إِلَّا بِالسُّكُوتِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَأْثَمُ بِهِ لَوْ سَكَتَ عَنْهُ.

وَأَمَّا الْبَاعِثُ عَلَىٰ هَذَا فَهُوَ التَّرَفُّعُ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَالتَّهَجُّمُ عَلَىٰ

الْغَيْرِ بِإِظْهَارِ نَقْصِهِ، وَهُمَا شَهْوَتَانِ بَاطِنَتَانِ لِلنَّفْسِ قَوِيَّتَانِ لَهَا، وَأَمَّا إِظْهَارُ الْفَضْلِ فَهُوَ مِنْ قِبَلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَهِيَ مِنْ مُقْتَضَىٰ مَا فِي الْعَبْدِ مِنْ طُغْيَانِ دَعْوَىٰ الْعُلُوِّ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَمَّا تَنْقِيضُ الْآخَرِ فَهُوَ مِنْ مُقْتَضَىٰ طَبْعِ السَّبُعِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَقْتَضِي أَنْ يُمَزِّقَ غَيْرَهُ وَيَقْصِمَهُ وَيَصْدِمَهُ وَيُؤْذِيَهُ.

وَهَاتَانِ صِفَتَانِ مَذْمُومَتَانِ مُهْلِكَتَانِ، وَإِنَّمَا قُوَّتُهُمَا الْمِرَاءُ وَالْجِدَالُ، فَالْمُوَاظِبُ عَلَىٰ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ مُقَوٍّ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُهْلِكَةِ، وَهَذَا مُجَاوِزٌ حَدَّ الْكَرَاهَةِ، بَلْ هُوَ مَعْصِيَةٌ مَهْمَا حَصَلَ فِيهِ إِيذَاءُ الْغَيْرِ، وَلَا تَنْفَكُّ الْمُمَارَاةُ عَنِ الْإِيذَاءِ وَتَهْيِيجِ الْغَضَبِ وَحَمْلِ الْمُعْتَرِضِ عَلَيْهِ عَلَىٰ أَنْ يَعُودَ فَيَنْصُرَ كَلَامَهُ بِمَا يُمَكِّنُهُ مِنْ حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ، وَيَقْدَحُ فِي قَائِلِهِ بِكُلِّ مَا يَتَصَوَّرُ لَهُ، فَيَثُورُ الشِّجَارُ بَيْنَ الْمُتَمَارِيَيْنِ كَمَا يَثُورُ الْهِرَاشُ بَيْنَ الْكَلْبَيْنِ، يَقْصِدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَعَضَّ صَاحِبَهُ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ نِكَايَةً، وَأَقْوَىٰ فِي إِفْحَامِهِ وَإِلْجَامِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ حَقٌّ فَلَا بُدَّ مِنَ الْخُصُومَةِ فِي طَلَبِهِ أَوْ فِي حِفْظِهِ مَهْمَا ظَلَمَهُ ظَالِمٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ حُكْمُهُ؟ وَكَيْفَ تُذَمُّ خُصُومَتُهُ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الذَّمَّ يَتَنَاوَلُ الَّذِي يُخَاصِمُ بِالْبَاطِلِ، وَالَّذِي يُخَاصِمُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَتَنَاوَلُ الَّذِي يَمْزَحُ بِالْخُصُومَةِ بِكَلِمَاتٍ مُؤْذِيَةٍ لَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي نُصْرَةِ الْحُجَّةِ وَإِظْهَارِ الْحَقِّ وَيَتَنَاوَلُ الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَىٰ الْخُصُومَةِ مَحْضَ الْعِنَادِ لِقَهْرِ الْخَصْمِ.

وَأَمَّا الْمَظْلُومُ الَّذِي يَنْصُرُ حُجَّتَهُ بِطَرِيقِ الشَّرْعِ، مِنْ غَيْرِ لَدَدٍ وَإِسْرَافٍ وَزِيَادَةٍ لَجَاجٍ عَلَىٰ قَدْرِ الْحَاجَةِ، وَمِنْ غَيْرِ قَصْدِ عِنَادٍ وَإِيذَاءٍ، فَفِعْلُهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ، وَلَكِنَّ الْأَوْلَىٰ تَرْكُهُ مَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، فَإِنَّ ضَبْطَ اللِّسَانِ فِي الْخُصُومَةِ عَلَىٰ حَدِّ الِاعْتِدَالِ مُتَعَذِّرٌ»(١).

وَفِي الشَّرْعِ تَرْهِيبٌ شَدِيدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ، وَالْخِصَالِ الْمَرْذُولَةِ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(٢) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلَاحَىٰ رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «**خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلَاحَىٰ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ**».

وَفِي رِوَايَةِ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عِنْدَ مُسْلِمٍ قَالَ: «**فَجَاءَ رَجُلَانِ يَحْتَقَّانِ، مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ، فَنُسِّيتُهَا**»(٣).

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**رَجُلَانِ يَحْتَقَّانِ**» -هُوَ بِالْقَافِ-، وَمَعْنَاهُ: يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَقَّهُ وَيَدَّعِي أَنَّهُ الْمُحِقُّ، وَفِيهِ: أَنَّ الْمُخَاصَمَةَ وَالْمُنَازَعَةَ مَذْمُومَةٌ، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِلْعُقُوبَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ»(٤).

---

(١) «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» (٣/ ١١٣).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٩، ١٩١٩، ٥٧٠٢).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١١٦٧).

(٤) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (٨/ ٦٣).

وَقَدْ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ لِحَدِيثِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي سَلَفَ بِقَوْلِهِ: «بَابُ رَفْعِ مَعْرِفَةِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ لِتَلَاحِي النَّاسِ».

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ: بِسَبَبِ تَلَاحِي النَّاسِ، وَقَيَّدَ الرَّفْعَ (بِمَعْرِفَةٍ) إِشَارَةً أَنَّهَا لَمْ تُرْفَعْ أَصْلًا وَرَأْسًا»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، الْأَلَدُّ: الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ، وَالْخَصِمُ: الَّذِي يَحُجُّ مَنْ يُخَاصِمُهُ.

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْأَلَدُّ: الشَّدِيدُ اللَّدَدِ، أَيِ: الْجِدَالِ، مُشْتَقٌّ مِنَ اللَّدِيدَيْنِ، وَهُمَا صَفْحَتَا الْعُنُقِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ مِنْ أَيِّ الْجِهَاتِ أَخَذَ فِي الْخُصُومَةِ قَوِيَ.

وَالْخَصِمُ: -بِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ وَكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ-، أَيِ: الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ»(٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ بَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَتَذَاكَرُ، يَنْزِعُ هَذَا بِآيَةٍ، وَيَنْزِعُ هَذَا بِآيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ، فَقَالَ: «**يَا هَؤُلَاءِ، بِهَذَا بُعِثْتُمْ، أَمْ بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**».

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (٤/ ٣١٤).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٣٢٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٦٨).

(٣) «فَتْحُ الْبَارِي» (٥/ ١٢٨).

قَالَ الْمُنْذِرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَفِيهِ سُوَيْدٌ»، وَالرِّوَايَةُ الَّتِي يُرِيدُ الْمُنْذِرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْكَبِيرِ» بِرَقْمِ (٥٤٤٢)، وَهُوَ يَعْنِي سُوَيْدًا أَبَا حَاتِمِ بْنَ إِبْرَاهِيمَ، وَفِيهِ ضَعْفٌ كَمَا ذَكَرَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١/ ١٥٦) عَنْ أَئِمَّةِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ: النَّسَائِيِّ، وَابْنِ مَعِينٍ، وَأَبِي زُرْعَةَ.

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ مُعَلِّقًا عَلَىٰ قَوْلِ الْمُنْذِرِيِّ: «يَعْنِي سُوَيْدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ أَبَا حَاتِمٍ، وَفِيهِ ضَعْفٌ، لَكِنْ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ أَنَسٍ مِثْلَهُ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ أَثْبَاتٌ كَمَا فِي الْمَجْمَعِ (١/ ١٥٧)، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو عِنْدَ ابْنِ مَاجَهْ وَأَحْمَدَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ، فَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ»[1].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ**»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخرف:٥٨].

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٢٥٣)، وَقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَابْنُ مَاجَهْ (٤٨)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ١٤)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «كِتَابِ الصَّمْتِ» (١٣٦).

وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٦١) تَعْلِيقًا عَلَىٰ قَوْلِ التِّرْمِذِيِّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ: «وَصَحَّحَهُ أَيْضًا الْحَاكِمُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ،

---

(١) «صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٦١).

وَإِنَّمَا هُوَ حَسَنٌ فَقَطْ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٦٠٣)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٣/ ١١٧)، وَابْنُ حِبَّانَ (٧٣)، وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٧٤٩٩، ١٠٤١٩).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٠٠)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٣/ ١٧٩)، وَفِي «سِلْسِلَةِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ» (٢٧٣) جَمْعٌ لِطُرُقِهِ وَبَحْثٌ فِي أَحْوَالِ رُوَاتِهِ.

وَقَدْ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٦٠)، وَفِيهِ أَيْضًا حَسَّنَ حَدِيثَ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَالطَّبَرَانِيُّ، وَفِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَتَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَحَسَّنَ خُلُقَهُ**».

وَرَبَضُ الْجَنَّةِ: -هُوَ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَبِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ-، وَهُوَ مَا حَوْلَهَا، فَالرَّبَضُ هُنَا، حَوَالَي الْجَنَّةِ وَأَطْرَافُهَا، لَا فِي وَسَطِهَا.

وَالْخُصُومَةُ عَدِيمَةُ الْفَائِدَةِ قَلِيلَةُ الْعَائِدَةِ فَإِنَّ الْجِدَالَ مَعَ مَا فِيهِ قَدْ يُوقِظُ

الْفَهْمَ وَيُثِيرُ الْأَنَفَةَ لِاقْتِبَاسِ الْعِلْمِ، وَالْخُصُومَةُ لَا تُثْمِرُ إِلَّا الْعَدَاوَةَ وَإِنْكَارَ الْحَقِّ؛ فَلِهَذَا جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَىٰ شَرًّا مِنَ الْجِدَالِ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[1]، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾. أَيْ: جَيِّدُ الْخُصُومَةِ مُبِينٌ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْخِصَامَ فِي مَوْضِعٍ إِلَّا عَابَهُ، وَأَيْضًا فَالْمُتَجَادِلَانِ يَجْرِيَانِ مَجْرَىٰ فَحْلَيْنِ تَعَادَيَا، وَكَبْشَيْنِ تَنَاطَحَا، وَرَئِيسَيْنِ تَحَارَبَا، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَجْتَهِدُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْفَاعِلَ وَصَاحِبُهُ الْمُنْطَبِعَ، وَالْقَائِلُ كَالْمُؤَثِّرِ، وَالسَّامِعُ كَالْمُتَأَثِّرِ، وَلَمْ يَتَوَلَّدْ مِنْهُمَا خَيْرٌ بِوَجْهٍ.

وَقَالَ حَكِيمٌ: الْمُجَادِلُ الْمُدَافِعُ يَجْعَلُ فِي نَفْسِهِ عِنْدَ الْخَوْضِ فِي الْجِدَالِ أَنْ لَا يَقْنَعَ بِشَيْءٍ، وَمَنْ لَا يُقْنِعُهُ إِلَّا أَنْ لَا يَقْنَعَ فَمَا إِلَىٰ إِقْنَاعِهِ سَبِيلٌ، وَلَوِ اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْحُكَمَاءُ بِكُلِّ بَيِّنَةٍ، بَلْ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ بِكُلِّ مُعْجِزَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١][2].

*** عِلَاجُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ وَالْمُخَاصَمَةِ:**

عِلَاجُ هَذِهِ الْأَدْوَاءِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ أَنْ «يَكْسَرَ الْكِبْرَ الْبَاعِثَ لَهُ عَلَىٰ إِظْهَارِ فَضْلِهِ، وَالسَّبُعِيَّةَ الْبَاعِثَةَ لَهُ عَلَىٰ تَنْقِيصِ غَيْرِهِ.

---

(١) يَقْصِدُ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الزخرف: ٥٨].

(٢) «الذَّرِيعَةُ إِلَىٰ مَكَارِمِ الشَّرِيعَةِ» لِلرَّاغِبِ الْأَصْفَهَانِيِّ (ص١٢٧).

فَإِنَّ عِلَاجَ كُلِّ عِلَّةٍ بِإِمَاطَةِ أَسْبَابِهَا، وَسَبَبُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ مَا ذَكَرْنَاهُ، ثُمَّ الْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهِ تَجْعَلُهُ عَادَةً وَطَبْعًا حَتَّىٰ يَتَمَكَّنَ مِنَ النَّفْسِ وَيَعْسُرَ الصَّبْرُ عَنْهُ.

رُوِيَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ: قَالَ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ: لِمَ آثَرْتَ الِانْزِوَاءَ؟ قَالَ: لِأُجَاهِدَ نَفْسِي بِتَرْكِ الْجِدَالِ، قَالَ: احْضُرِ الْمَجَالِسَ، وَاسْتَمِعْ مَا يُقَالُ، وَلَا تَتَكَلَّمْ، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَمَا رَأَيْتُ مُجَاهَدَةً أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْهَا.

وَهُوَ كَمَا قَالَ، لِأَنَّ مَنْ سَمِعَ الْخَطَأَ مِنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ كَشْفِهِ، تَعَسَّرَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عِنْدَ ذَلِكَ جِدًّا، وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ؛ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ**»(١) لِشِدَّةِ ذَلِكَ عَلَىٰ النَّفْسِ، وَأَكْثَرُ مَا يَغْلُبُ ذَلِكَ فِي الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ، فَإِنَّ الْمِرَاءَ طَبْعٌ، فَإِذَا ظَنَّ أَنَّ لَهُ عَلَيْهِ ثَوَابًا اشْتَدَّ عَلَيْهِ حِرْصُهُ، وَتَعَاوَنَ الطَّبْعُ وَالشَّرْعُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ، بَلْ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُفَّ لِسَانَهُ عَنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَإِذَا رَأَىٰ مُبْتَدِعًا تَلَطَّفَ فِي نُصْحِهِ فِي خَلْوَةٍ لَا بِطَرِيقِ الْجِدَالِ؛ فَإِنَّ الْجِدَالَ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا حِيلَةٌ مِنْهُ فِي التَّلْبِيسِ، وَأَنَّ ذَلِكَ صَنْعَةٌ يَقْدِرُ الْمُجَادِلُونَ مِنْ أَهْلِ مَذْهَبِهِ عَلَىٰ أَمْثَالِهَا لَوْ أَرَادُوا فَتَسْتَمِرُّ الْبِدْعَةُ فِي قَلْبِهِ بِالْجَدَلِ وَتَتَأَكَّدُ، فَإِذَا عَرَفَ أَنَّ النُّصْحَ لَا يَنْفَعُ اشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ وَتَرَكَهُ(٢)، وَكُلُّ مَنِ اعْتَادَ

---

(١) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ (ص١٠٢).

(٢) نَعَمْ، يَتَلَطَّفُ فِي نُصْحِهِ، فَإِنْ فَاءَ وَإِلَّا حَذَّرَ مِنْهُ وَمِنْ بِدْعَتِهِ، وَلَيْسَ كَمَا قَالَ: «اشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ وَتَرَكَهُ»!! بَلْ عَلَىٰ حَسَبِ الْمُبْتَدِعِ، هَلْ هُوَ دَاعٍ إِلَىٰ بِدْعَتِهِ أَوْ لَا؟ وَهَلْ هُوَ رَأْسٌ فِيهَا أَوْ ذَنَبٌ؟

=

الْمُجَادَلَةَ مُدَّةً وَأَثْنَىٰ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَوَجَدَ لِنَفْسِهِ بِسَبَبِهِ عِزًّا وَقَبُولًا، قَوِيَتْ فِيهِ هَذِهِ الْمُهْلِكَاتُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ عَنْهَا نُزُوعًا إِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ سُلْطَانُ الْغَضَبِ وَالْكِبْرِ وَالرِّيَاءِ وَحُبِّ الْجَاهِ وَالتَّعَزُّزِ بِالْفَضْلِ، وَآحَادُ هَذِهِ الصِّفَاتِ يَشُقُّ مُجَاهَدَتُهَا، فَكَيْفَ بِمَجْمُوعِهَا؟!»(١).

وَقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَوَىٰ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، وَأَبُو سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**».

وَالْمَعْنَىٰ: أَنْ يَتَمَارَىٰ اثْنَانِ فِي آيَةٍ يَجْحَدُهَا أَحَدُهُمَا، وَيَدْفَعُهَا أَوْ يَصِيرُ فِيهَا إِلَىٰ الشَّكِّ، فَذَلِكَ هُوَ الْمِرَاءُ الَّذِي هُوَ الْكُفْرُ.

وَأَمَّا التَّنَازُعُ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَمَعَانِيهِ فَقَدْ تَنَازَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا يُبَيِّنُ لَكَ أَنَّ الْمِرَاءَ الَّذِي هُوَ كُفْرٌ هُوَ الْجُحُودُ وَالشَّكُّ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج:٥٥]، وَنَهَىٰ السَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- عَنِ الْجِدَالِ فِيهِ وَالتَّنَاظُرِ، لِأَنَّهُ عِلْمٌ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَىٰ رَدِّ الْفُرُوعِ عَلَىٰ الْأُصُولِ لِلْحَاجَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَلَيْسَ الِاعْتِقَادَاتُ كَذَلِكَ، لِأَنَّ اللهَ ﷻ لَا يُوصَفُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ(٢).

=

وَ «عَلَىٰ حَسَبِ بِدْعَتِهِ، هَلْ هِيَ مُكَفِّرَةٌ أَوْ مُفَسِّقَةٌ؟ وَهَلْ هِيَ كُبْرَىٰ أَوْ صُغْرَىٰ؟ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالْأُصُولِ.

(١) «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» (٣/ ١٦٤).

(٢) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» (ص٣٦٠).

* التَّعَامُلُ مَعَ أَهلِ اللَّجَاجِ:

وَصَفَ الرَّاغِبُ رَحِمَهُ اللَّهُ سَبِيلَ التَّعَامُلِ مَعَ أَهْلِ اللَّجَاجِ لَا الْحِجَاجِ، وَمَعَ أَهْلِ الْمِرَاءِ وَالْعِنَادِ، فَقَالَ: «إِذَا ابْتُلِيتَ بِمُهَارِشٍ مُمَاحِكٍ مُنَاوِشٍ، قَصْدُهُ اللَّجَاجُ لَا الْحِجَاجُ، وَمُرَادُهُ مُنَاوَأَةُ الْعُلَمَاءِ، وَمُمَارَاةُ السُّفَهَاءِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ جَهَنَّمَ**»(١).

قَالَ الشَّاعِرُ:

تَــرَاهُ مُعِــدًّا لِلْخِــلَافِ كَأَنــهُ ... بِـرَدٍّ عَلَـىٰ أَهْـلِ الصَّـوَابِ مُوَكَّـلُ

فَحَقُّكَ أَنْ تَفِرَّ مِنْهُ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَاوِدِ وَالْأُسُودِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ مُزَاوَلَتِهِ بُدًّا، فَكَابِرْ إِنْكَارَهُ الْحَقَّ بِإِنْكَارِكَ الْبَاطِلَ، وَدِفَاعَهُ الصِّدْقَ بِدِفَاعِكَ الْكَذِبَ، مُعْتَبِرًا فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل:٥٠].

وَقَوْلَهُ: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤].

وَقَوْلَهُ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٤-١٥].

---

(١) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ (٢٦٠)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ٤٨)، وَصَحَّحَهُ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٤٧).

وَقَوْلَهُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥]، وَبَالِغْ فِي ذَلِكَ مَعَهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُعَرِّجَ مَعَهُ إِلَىٰ بَثِّ الْحِكْمَةِ، وَأَنْ تَذْكُرَ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْحَقَائِقِ مَا لَمْ تَتَحَقَّقْ لَهُ قَلْبًا طَاهِرًا لَائِقًا لِلْحِكْمَةِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ**»(١)، فَإِنَّ لِكُلِّ تُرْبَةٍ غَرْسًا، وَلِكُلِّ بِنَاءٍ أُسًّا، وَمَا كُلُّ الرُّءُوسِ تَسْتَحِقُّ التِّيجَانَ، وَلَا كُلُّ طَبِيعَةٍ تَسْتَحِقُّ إِفَادَةَ الْبَيَانِ.

وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاقْتَصِرْ مَعَهُ عَلَىٰ إِقْنَاعٍ يَبْلُغُهُ فَهْمُهُ، فَقَدْ قِيلَ: كَمَا أَنَّ لُبَّ الثِّمَارِ مُبَاحٌ لِلنَّحْلِ، وَالتِّبْنَ مَعْدُودٌ لِلْأَنْعَامِ كَذَلِكَ لُبُّ الْحِكْمَةِ مُعَدٌّ لِذَوِي الْأَلْبَابِ، وَقُشُورُهَا مَجْعُولَةٌ لِلْأَنْعَامِ، وَكَمَا أَنَّ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَشُمَّ الْأَخْشَمُ(٢) رَيْحَانًا، فَمُحَالٌ أَنْ يُفِيدَ الْحِمَارُ بَيَانًا»(٣).

*** بَيَانُ آدَابِ الْمُجَادِلِ:**

فَصَّلَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ آدَابَ الْجِدَالِ، وَمَا يَنْبَغِي لِلْمُجَادِلِ أَنْ يَأْخُذَ بِهِ نَفْسَهُ فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْبَغِي لِلْمُجَادِلِ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَىٰ جِدَالِهِ تَقْوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦].

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠٥٣)، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٠٤).

(٢) الْأَخْشَمُ: الَّذِي لَا يَجِدُ رِيحَ طِيبٍ وَلَا نَتْنٍ، وَالْخَشَمُ: سُقُوطُ الْخَيَاشِيمِ، وَانْسِدَادُ الْمُتَنَفَّسِ، وَلَا يَكَادُ الْأَخْشَمُ يَشُمُّ شَيْئًا. [«لِسَانُ الْعَرَبِ» (خشم)، (ص١١٦٨)].

(٣) «الذَّرِيعَةُ إِلَىٰ مَكَارِمِ الشَّرِيعَةِ» (ص١٢٩).

وَلِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

وَيُخْلِصُ النِّيَّةَ فِي جِدَالِهِ بِأَنْ يَبْتَغِيَ بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلْيَكُنْ قَصْدُهُ فِي نَظَرِهِ(١): إِيضَاحَ الْحَقِّ وَتَثْبِيتَهُ دُونَ الْمُغَالَبَةِ لِلْخَصْمِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَا كَلَّمْتُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا أَحْبَبْتُ أَنْ يُوَفَّقَ وَيُسَدَّدَ وَيُعَانَ، وَتَكُونَ عَلَيْهِ رِعَايَةٌ مِنَ اللهِ وَحِفْظٌ، وَمَا كَلَّمْتُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا وَلَمْ أُبَالِ بيَّنَ اللهُ الْحَقَّ عَلَىٰ لِسَانِي أَمْ لِسَانِهِ».

وَيَبْنِي أَمْرَهُ عَلَىٰ النَّصِيحَةِ لِدِينِ اللهِ وَالَّذِي يُجَادِلُهُ، لِأَنَّهُ أَجْمَعُ فِي الدِّينِ، مَعَ أَنَّ النَّصِيحَةَ وَاجِبَةٌ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، فَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»(٢).

وَكَانَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَحْلِفُ وَيَقُولُ: «مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا إِلَّا عَلَىٰ النَّصِيحَةِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا فَأَحْبَبْتُ أَنْ يُخْطِئَ».

وَيَسْتَشْعِرُ فِي مَجْلِسِهِ أَيِ: -الْمُجَادِلُ- الْوَقَارَ، وَيَسْتَعْمِلُ الْهَدْيَ، وَحُسْنَ السَّمْتِ، وَطُولَ الصَّمْتِ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الْكَلَامِ، وَإِنْ نَدَرَتْ مِنْ خَصْمِهِ فِي جِدَالِهِ كَلِمَةٌ كَرِهَهَا أَغْضَىٰ عَلَيْهَا، وَلَمْ يُجَازِ بِمِثْلِهَا، فَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦].

---

(١) فِي نَظَرِهِ: فِي بَحْثِهِ وَجِدَالِهِ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧، ٥٨)، وَمُسْلِمٌ (٥٦).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ**: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ عَلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ -وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ(١) الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ(٢) عُمَرُ- وَكَانَ الْقُرَّاءُ(٣) أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ(٤)، كُهُولًا(٥) كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي: لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيْ(٦) يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّىٰ هَمَّ بِهِ(٧)، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَاللهِ مَا جَاوَزَهَا(٨) عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا، وَكَانَ وَقَّافًا(٩) عِنْدَ

---

(١) النَّفَرُ: الْأَشْخَاصُ.

(٢) يُدْنِيهِمْ: يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ فِي مَجْلِسِهِ.

(٣) الْقُرَّاءُ: الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَحْفَظُونَهُ، وَيَفْقَهُونَهُ.

(٤) مُشَاوَرَتِهِ: يُشَاوِرُهُمْ فِي الْأُمُورِ.

(٥) كُهُولًا: جَمْعُ كَهْلٍ، وَهُوَ الَّذِي عَلَاهُ الشَّيْبُ، وَقِيلَ: هُوَ مَنْ جَاوَزَ الثَّلَاثِينَ.

(٦) هِيْ: كَلِمَةُ زَجْرٍ وَتَهْدِيدٍ. وَالْجَزْلُ: الشَّيْءُ الْكَثِيرُ.

(٧) هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ: أَيِ: الْعُقُوبَةَ.

(٨) مَا جَاوَزَهَا: لَمْ يَتَعَدَّ الْعَمَلَ بِهَا.

(٩) وَقَّافًا: أَيْ: إِذَا سَمِعَ آيَاتِهِ الْتَزَمَ أَحْكَامَهُ، وَوَقَفَ عِنْدَهَا وَلَمْ يَتَعَدَّهَا.

عِنْدَ كِتَابِ اللهِ»(١).

وَيَنْبَغِي أَلَّا يَتكَلَّمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَشْهَدُ لِخَصْمِهِ بِالزُّورِ، أَوْ عِنْدَ مَنْ إِذَا وَضَحَتْ لَدَيْهِ الْحُجَّةُ دَفَنَهَا وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ إِقَامَتِهَا، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ نُصْرَةِ الْحَقِّ إِلَّا مَعَ الْإِنْصَافِ وَتَرْكِ التَّعَنُّتِ وَالْإِجْحَافِ، وَيَكُونُ كَلَامُهُ يَسِيرًا جَامِعًا بَلِيغًا، فَإِنَّ التَّحَفُّظَ مِنَ الزَّلَلِ مَعَ الْإِقْلَالِ دُونَ الْإِكْثَارِ، وَفِي الْإِكْثَارِ أَيْضًا مَا يُخْفِي الْفَائِدَةَ وَيُضَيِّعُ الْمَقْصُودَ وَيُورِثُ الْحَاضِرِينَ الْمَلَلَ.

وَلَا يَرْفَعُ صَوْتَهُ فِي كَلَامِهِ عَالِيًا فَيَشُقَّ حَلْقَهُ وَيَحْمِيَ صَدْرَهُ وَيَقْطَعَهُ، وَذَلِكَ مِنْ دَوَاعِي الْغَضَبِ، وَلَا يُخْفِي صَوْتَهُ إِخْفَاءً لَا يَسْمَعُهُ الْحَاضِرُونَ فَلَا يُفِيدُ شَيْئًا، بَلْ يَكُونُ مُقْتَصِدًا بَيْنَ ذَلِكَ.

وَيَجِبُ عَلَيْهِ الْإِصْلَاحُ مِنْ مَنْطِقِهِ، وَتَجَنُّبُ اللَّحْنِ فِي كَلَامِهِ، وَالْإِفْصَاحُ عَنْ بَيَانِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ عَوْنٌ لَهُ فِي مُنَاظَرَتِهِ.

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَاظِبَ عَلَىٰ مُطَالَعَةِ كُتُبِهِ عِنْدَ وَحْدَتِهِ، وَرِيَاضَةِ نَفْسِهِ فِي خَلْوَتِهِ بِذِكْرِ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ، وَحِكَايَةِ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ، لِئَلَّا يَنْحَصِرَ فِي مَجَالِسِ النَّظَرِ إِذَا رَمَقَتْهُ أَبْصَارُ مَنْ حَضَرَ.

وَلَا يَكُونُ رَخِيَّ الْبَالِ قَصِيرَ الْهِمَّةِ فَإِنَّ مَدَارِكَ الْعِلْمِ صَعْبَةٌ لَا تُنَالُ إِلَّا

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٣٦٦)، وَرِوَايَتُهُ هِيَ الْمُثْبَتَةُ هُنَا، وَقَدْ سَاقَ الْخَطِيبُ الرِّوَايَةَ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي اللَّفْظِ، وَاخْتِصَارٍ فِيهِ.

بِالْجَهْدِ وَالِاجْتِهَادِ وَلَا يَسْتَحْقِرُ خَصْمَهُ لِصِغَرِهِ فَيُسَامِحُهُ فِي نَظَرِهِ، بَلْ يَكُونُ عَلَىٰ نَهْجٍ وَاحِدٍ فِي الِاسْتِفْتَاءِ وَالِاسْتِقْصَاءِ؛ لِأَنَّ تَرْكَ التَّحَرُّزِ وَالِاسْتِظْهَارِ يُؤَدِّي إِلَىٰ الضَّعْفِ وَالِانْقِطَاعِ.

وَيَنْبَغِي أَلَّا يَكُونَ مُعْجَبًا بِكَلَامِهِ مَفْتُونًا بِجِدَالِهِ؛ فَإِنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَمِنْهُ تَقَعُ الْمَعْصِيَةُ، وَهُوَ رَأْسُ كُلِّ بَلِيَّةٍ.

وَإِذَا وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ فِي أَوَّلِ كَلَامِ الْخَصْمِ فَلَا يَعْجَلْ بِالْحُكْمِ بِهِ، فَرُبَّمَا كَانَ فِي آخِرِهِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْغَرَضَ بِخِلَافِ الْوَاقِعِ لَهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَثَبَّتَ إِلَىٰ أَنْ يَنْقَضِيَ الْكَلَامُ.

وَيَكُونُ نُطْقُهُ بِعِلْمٍ، وَإِنْصَاتُهُ بِحِلْمٍ، وَلَا يَعْجَلُ إِلَىٰ جَوَابٍ، وَلَا يَهْجِمُ عَلَىٰ سُؤَالٍ، وَيَحْفَظُ لِسَانَهُ مِنْ إِطْلَاقِهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ، وَمِنْ مُنَاظَرَتِهِ فِيمَا لَا يَفْهَمُهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَخْرَجَهُ ذَلِكَ إِلَىٰ الْخَجَلِ وَالِانْقِطَاعِ، فَكَانَ فِيهِ نَقْصُهُ وَسُقُوطُ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ مَنْ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ»[1].

❁ ❁ ❁

(١) «الْفَقِيهُ وَالْمُتَفَقِّهُ» (٢/ ٢٥).